خـــواطر

فى الحياة والموت

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المـازنى

كلما فكرت فى أمر الموت ازددت حيرة ، وكنت أظن أن إطالة الفكرة فيه رياضة حسنة عليه . وأن ذلك جدير بأن يصغر الدنيا فى عيني ، ويجعلني بالحياة أقل احتفالا ، فاذا الأمر على خلاف ذلك ، والحال على نقيضه . وما أظن بغيرى إلا أنه مثلى ، وقد أقول لنفسى حين أخلو بها ـ وقلما أفعل هذا الآن ـ إن كون المرء يحيا ليموت ليس بالغاية أو النهاية التى يسكن اليها الحى ويطيب بها نفسا ، وما أشبه ما يفعل بنا هذا القدر الجارى علينا بما نصنعه نحن بخراف العيد ـ نسمنها لنذبحها آخر الأمر ، وفرق ما بيننا وبين الخراف أن هذه تزداد لحما وشحما وأنا نزداد علما وفهما ؛ ولا أدرى من الذى قال إن الحياة مدرسة ، ولـكن الذى أدريه أنها أعجب المدارس وأخفاها ـ ولا أقول أقلها ـ حكمة ، ذلك أن التعلم فيها يستمر إلى نهاية العمر ، ولا سبيل إلى اختصار الأمر أو الاجتزاء ببعض العلم عن بعضه ، لانتفاء الارادة الشخصية ، ولأن المدرسة هى الدنيا كلها ، فلا خروج منها إلا بالخروج من عالم الأحياء ، والعالم والجاهل سيان ، واللبيب كالغبى ، والساعى فى وزن القاعد ، والمصير واحد ، والمآل لا يختلف ، وكل من فى هذه المدرسة العجيبة يتلقى علومه الخاصة التى لا تشبه دروس غيره ، ولا ترى أحداً يسأله هل حذق الدرس أم أهمله ونسيه ؟ وكل واحد عالم وجاهل فى آن معاً ، يعرف ما أتيح له أن يعرف ، ويجهل ما عدا ذلك أجمعه . وقل أن ينتفع أحد بما تعلم فى حياته لأنه يدفن معه فى قبره ، ويلف عليه وعلى تجاربه ومعارفه كفن واحد . وكم تساءلت ـ وأنا أتدبر هذا كله ـ عن الحكمة فى تضييع ما أفاد الانسان فى حياته من العلم والخبرة ؟ ؟ ذلك أن كل ما حصل فى حياته يموت معه ، ولا سبيل إلى استنقاذ التجاريب والمعارف والانتفاع بها بعد أن يقضى صاحبها نحبه ويستوفى أجله . فهل هـذه يا ترى خسارة تصيب الانسانية كلما مات منها فرد ، أم لا خسارة هناك عليها ولا ضير ؟ ؟ من يدرى ؟

وسهل أن يفهم المرء أن يخلق ليحيا ، ولـكن العسير أن نجعله يفهم أنه يخلق للموت . فلماذا يكون هذا هكذا ؟ وإذا صح أن الحياة مدرسة ، أفلا يكون الأصدق والأشبه بالواقع أن نقول إن غايتها تدريب الأحيـاء على الموت وإعدادهم له ؛ ذلك أن الانسان يموت منـه كل يوم شىء ، وشجرته لا تزال تتساقط ورقاتها وزهراتها واحدة فى إثر أخرى ، حتى تصوح وتعطب ، وانظر ما يفعل الزمن بآمالنا ورغائبنا ومساعينا وبأجسامنا ونفوسنا ؟ ؟ والآمال يدركها الحين ، والشباب يذهب ، والصباحة يغيض مؤها ، والنشاط ينضب معينـه ، والشعر الأسود يبيض ، والقوة تسترق ، والقناة المعتدلة تتقوس ، والسمع يثقل ، والنظر يضعف ، والشهوات تفتر ، والعجز يدب دبيبه شيئاً فشيئاً . حتى يوافى الأجل فيكون كل هذا تمهيداً له تتدرب به النفوس على السكون إلى الموت . حتى كر الأيام ايذان مستمر بالموت الزاحف ، وليس يسع الانسان حين يتأمل ذلك إلا أن يشعر أن كل يوم يعيشه ، هو يوم يموته ، والواقع أن الانسان فى يومه غير ما كان فى أمسه ، لأن الحياة قائمة على التحول ، أو هى دائرة على الموت إذا شئت ، ولا سبيل فيها الى بقاء شىء أو ركود حال ، وكل ساعة تمضى علينا تمضى بشىء منا ، أو على الأصح بصورة من صور وجودنا ، وحالة من حالات نفوسنا وأجسامنا ، وكون المرء يتغير معناه أنه يذهب ويجىء غيره ، ويموت ثم يخلق خلقاً آخر ، ولكن سرعة التعاقب فى الخلق تجعل الصورة الجديدة مولدة من القديمة الفانية وشبيهة بها شبها يخفى وجوه الاختلاط : والذى يديم النظر فى المرآة لا يفطن إلى التغير الذى حدث ، ولـكن الذى يبعد عهده بالمرايا لا يسعه إلا أن يرى أن صورته قد تغيرت ، وحالت عما كان يعرف

فالموت يعيث فينا نهارا وليـلا . وصباحا ومساء ، وكل إحساس أو رأى أو اعتقاد لنا يتـغير ، هو ضرب من الموت يدركنا ، والشيخوخة والأمراض وما يصيبنا من خيبة فى آمالنا أو اخفاق فى مساعينا — رياضة لنا على ما نحن صائرون إليه من المآل . وقد أتساءل أحياناً عن معنى حياة مجهولة